المرأة في الإسلام

أسهمت المرأة المسلمة في الحياة السياسية منذ بداية الإسلام، فبايعت الرسول (ص) كما بايع الرجال، وهاجرت كما هاجر الرجال، وجاهدت في سبيل الله. ورغم خروج دعاتنا ومشايخنا على الفضائيات في كل مناسبة والتغني بتكريم الإسلام للمرأة، إلا أنه لا يخفى على أحد كيف كرس الفقه الموروث وضعاً مهيناً لها، ربما عن غير قصد تماماً، لكنه وضع يناسب مجتمعات ذكورية تسودها الروح القبلية والعشائرية. فالمرأة وفق هذا الفقه متاع مع الأشياء والحيوانات، وناقصة عقلٍ ودين، تحتاج لولي يزوجها ومحرم يسافر معها، باعتبارها ضلع قاصر لا تستطيع تولي أمور حياتها، ضمن نظرة دونية بعيدة كل البعد عما جاء في التنزيل الحكيم. نظرة تقدم الحجج الجاهزة لكل من يتهم الإسلام بالتخلف والرجعية، وتعطي مسوغاً لظلم النساء حتى من أنفسهن، راضيات في كثير من الأحيان بالتنازل عن حقوقهن لرجل ظالم، له أفضلية عليهن، على اعتبار أن الله أعطاه القوامة، فعليها طاعته والرضوخ لرغباته كي لا تلعنها الملائكة، وعليها إخفاء جسدها كي لا تفتن الرجل، وكل ذلك في أغلب الحالات لن يجعلها تطال الجنة، حيث في رأي أهل التراث أن أكثر من في جهنم من النساء.

أما إذا نظرنا إلى وضع المرأة في التنزيل الحكيم، فنجد نظرة مختلفة تماماً، حيث ساوى الله تعالى بين الذكر والأنثى على المستوى الإنساني العاقل: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (الحجرات 13)، وعلى المستوى البشري الفيزيولوجي "وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى" (النجم 45) وخاطب المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات دون أفضلية لأحد الطرفين .

وفي حين تكرست المرأة في الوعي الجمعي كمتاع وموضع شهوة، نرى التنزيل الحكيم يعبر بمنتهى الرقي عن العلاقة بين الرجل والمرأة: "هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ" (البقرة 187)، والزواج علاقة متبادلة من السكينة والمودة والرحمة : "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون (الروم 21.

إن التراث يظلم المرأة في عدة نواحي مثل قوامة الرجل على المرأة واعتبارها للشهوة والفتنة في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وسننظر هنا بتدبُّر في المفاهيم والآيات التي استندوا إليها:

1. قوامة الرجل على المرأة

يستند المجتمع الذكوري على الآية: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً" "وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيراً "

) النساء 34و35 .(

قال المفسرون الأوائل: [الرجال قوامون على النساء] أي قائمون عليهن بالأمر والنهي، والإنفاق والتوجيه، كما يقوم الولاة على الرعية، بسبب ما منحهم الله من العقل والتدبير، وخصهم به من الكسب والإنفاق، فهم يقومون على النساء بالحفظ والرعاية، والإنفاق والتأديب، هذا تفصيل لحال النساء تحت رياسة الرجل. وقد ذكر تعالى أنهن قسمان :

قسم صالحات مطيعات، القسم الثاني (واللاتي تخافون نشوزهن) وهن النساء العاصيات المتمردات واللاتي يتكبرن ويتعالين عن طاعة الأزواج. فعليكم أيها الرجال أن تسلكوا معهن سبل الإصلاح: فخوفوهن الله بطريق النصح والإرشاد، فإن لم ينجح الوعظ والتذكير، فاهجروهن في الفراش، فلا تكلموهن ولا تقربوهن، فإن لم يرتدعن فاضربوهن ضربا غير مبرح. وقد ذهب أغلب المفسرين إلى الأخذ بهذا التفسير أو ما هو قريب منه .

ونظراً لأهمية هذا الموضوع استحضر هنا تفسيراً آخر للدكتور محمد شحرور في القراءة المعاصرة للقرآن :

يبدأ بتعريف القوامة. يقال قام على الأمر أي أحسنه .

إذا نظرنا إلى الآيات السابقة نرى ان آية القوامة هذه جاءت ضمن سياق الحديث عن المعاملات المالية. كقوله تعالى: {29} "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ" وقوله: {32} "وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا." ثم ذكر في هذه الآية: {34} "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ." فأساس القوامة هنا هو المقدرة المالية والإدارية للإنسان .

ومن ثم تعالوا نتفحص معاني المفردات. من هم الرجال ومن هم النساء المشار إليهم في هذه الآية؟ فكلمة (رجل) لغة تدل على عضو الحركة والسير والقيام، لذا جاءت كلمة رجل في التنزيل الحكيم بمعنى الترجُّل في المشي والحركة والنشاط للذكر والأنثى على حد سواء، أي بدلالة صفة حال وليس اسم جنس، وعلى هذا سنورد آيات التنزيل الحكيم التي ورد فيها الرجل للذكور والإناث معاً :

- (فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا) البقرة 239. أي ماشين أو راكبين سواء كانوا ذكورا أو إناثاً

(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) الحج 27. أي والحجاج سواء من الذكور أو الإناث يأتون ماشين أو راكبين

- (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه)الأحزاب 4 ، فإذا كان الرجل هو الذكر ليس له قلبين في جوفه، فهل للأنثى قلبين في جوفها؟ هنا الرجل هو الذكر والأنثى. ومنه نرى أن القرآن يستعمل كلمة رجل دالة على الذكر والأنثى .

أما كلمة النساء فجاءت في اللسان العربي من "نسأ" والنسيء هو التأخير كقوله تعالى للذين يُؤخِّرون في الأشهر الحرم: {إنما النسيء زيادة في الكفر} (التوبة 37) وهذا المعنى مفهوم لدى المفسرين الأوائل بشكل بدائي جدا حيث قالوا إن الله خلق آدم ثم خلقت منه حواء أي أن الأنثى ظهرت في الوجود متأخرة عن الذكر ولهذا سميت الإناث نساء "أي تأخرن في الخلق."

فإن سأل سائل: ولماذا لم يفهم الأوائل هكذا؟ أقول: إنهم انطلقوا من معقولاتهم. ففي مجتمع قبلي بدوي بدائي ذكوري أبوي، حتى امرؤ القيس وسحبان بن وائل سيفهمون من آية القوامة والشهوات أن الرجال هم الذكور والنساء هم الإناث، وكذلك أئمة مثل الإمام الشافعي، من غير المحتمل أن تدخل هذه المفاهيم في معقولاته، حتى أنه اعتبر الولد في آية الإرث هو الذكر .

وفي قوله تعالى: {بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} يشمل الرجال والنساء معاً. ليصبح المعنى: بما فضل الله بعض الرجال والنساء على بعض آخر من الرجال والنساء. وهذا ينفي تماماً الأفضلية بالخلق على أساس الذكورة والأنوثة، وتبقى الأفضلية بحسن الإدارة والحكمة ودرجة الثقافة والوعي، التي تتفاوت بين الناس، فمن الرجال من هو أفضل فيها من النساء والعكس صحيح. وننتقل إلى البند الثاني من القوامة وهو البند المالي في قوله تعالى: {وبما أنفقوا من أموالهم} فصاحب المال له القوامة بغض النظر عن كفاءته ودرجة وعيه وثقافته، فصاحب المصنع الذي يحمل الإعدادية مثلاً يستطيع أن يعين مديراً يحمل الشهادات العالية لإدارة مصنعه، ويخضع لأوامر صاحب المصنع لأن بيده قوامة الإنفاق. وبالمثل إذا كانت صاحبة المصنع امرأة ومدراء وعمال المصنع من الذكور فإنها تكون صاحبة القوامة على هؤلاء الذكور. أما من يرى قوامة الرجل على المرأة بالخلق فذلك من جراء الخلط بين الرجال والذكور وبين النساء والإناث، ومنهم الإمام السيوطي، وينسب للنبي الكريم (ص) قوله: "ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة" (مسند أحمد 19603). وقوله: "النساء ناقصات عقل ودين" (البخاري 293)، شهادة إحداهن نصف شهادة وهذا هو نقص العقل، ولأنهن يحضن فلا يصلين وهذا هو نقص الدين، وأن معظم أهل النار من النساء، وأن الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة. هنا وُضعت المرأة كشيء من الأشياء وأن الدنيا للرجل، فهذا علَّم النساء الشعور بالدونية واضطهاد الذات .

ونأتي إلى أهم مجال تتجسد فيه القوامة وهو الأسرة، فالأسرة كنواة للمجتمع تحتاج إلى قَيِّمٍ يدير أمورها ويسوس أفرادها ويقود مركبها بين أمواج الحياة. والرجال درجات في الغنى والثقافة وحسن الخلق والقدرة على القيادة، والنساء أيضاً درجات في ذلك كله، ولاريب في أن مصلحة الأسرة والمجتمع تكمن بأن تكون القيادة في يد صاحب الفضل رجلاً كان أم امرأة أو بيد الإثنين

معاً يتشاوران في كل الأمور في حال التكافؤ في الثقافة والإدارة. {فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله..} ولفظ {فالصالحات} هنا يعني الصالحات للقوامة، لأن القوامة هي المدار الذي تدور حوله الآية. أما ما ذهب إليه البعض فزعموا أن الصالحات تعني الصائمات ومقيمات الصلاة فلا علاقة له بالقوامة، والآية إذن تعدد الصفات التي يجب أن تتصف بها المرأة الصالحة للقوامة، بما فضلها الله من ثروة أو ثقافة أو قدرة فكرية قيادية، وهذه الصفات هي القنوت وحفظ الغيب، فإذا اتصفت بها كانت صالحة للقوامة. ولكن ماذا إذا لم تتصف بها؟ في هذه الحالة تكون قد خرجت عن خط القوامة ليصبح اسمها في الآية ناشزاً {واللاتي تخافون نشوزهن..} أي خروجهن عن صفات القنوت وحفظ الغيب. ثم تتابع الآية لترشدنا إلى ما يجب عمله في حالة النشوز هذه والخروج عن صفات القوامة لتقول {.. فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن..}. وأما ما ذهب إليه البعض من أن النشوز هنا هو الخروج عن طاعة الزوج وعصيانه حصراً، فهذا ليس دقيقاً، أولاً لأن مدار الآية لا يدور عليه، ثانياً لأن النشوز في اللسان هو الخروج والتفرق عموماً، كما ورد في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل لكم انشزوا فانشزوا..} المجادلة 11.
ونخلص إلى القول بأن النشوز هنا لا علاقة له بالنشوز الأخلاقي والتمرد الذي يستوجب التأديب والأخذ على اليد كما ذهب المفسرون الأوائل، بل هو التسلط والاستبداد بالرأي، وعكسه القنوت. فالقنوت هو الأناة والصبر وسعة الصدر، وحفظ الغيب الذي هو حفظ خصوصيات الزوج والزوجة وعدم الثرثرة بها. فما الذي يجب عمله في حالة ظهور بوادر النشوز عند المرأة صاحبة القوامة؟ في هذه الحالة يكون الحل بالعظة والنصيحة والقول الكريم يقول: {فعظوهن}. أما إذا لم ينفع الحل الأول بالعظة والثاني بالهجر بالنسبة للزوجة فيأتي حل {اضربوهن} أي فاضربوا على أيديهن بسحب القوامة منهن. فقد ذهب البعض إلى أن الضرب هنا يعني الصفع واللكم والرفس. وفاتهم أن الضرب في اللسان العربي يعني ضَرب الأمثال، ويعني الضَرب في الأرض، ويعني التدابير الصارمة كقولنا: ضربت الدولة بيد من حديد على المتلاعبين بالأسعار، ويعني ضَرب النقود ويعني أخيراً الصفع واللكم والرفس. ولعلنا لا نجد مبرراً أبداً للسيوطي وغيره بانتقاء هذا المعنى لنصبح بذلك من الذين يستمعون القول فيتبعون أسوأه.

ولما كانت الآية تتحدث عن قوامة المرأة بما فضلها الله من مال أو فكر أو حسن قيادة، وعن نشوزها وتعسفها في ممارسة هذا القوامة، وترسم ثلاث معالجات لهذا النشوز، فقد لا تنفع هذه العلاجات. هنا تأتي الآية بعدها لتنصح بالتحكيم لحل هذا الخلاف الذي يخشى أن يتحول إلى شقاق وطلاق.

لقد نظم المنهج - من قبل في الآية 34 - حالة النشوز من ناحية الزوجة ; والإجراءات التي تتخذ للمحافظة على كيان الأسرة، فالآن ينظم حالة النشوز والإعراض حين يخشى وقوعها من ناحية الزوج في قوله تعالى:

"وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" ﴿١٢٨ النساء﴾

ونقف عند قوله تعالى "وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا" ونتساءل: لماذا قال: "وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا" ولم يقل (من زوجها)؟ وهل هناك فرق بين البعل والزوج؟ نقول: نعم هناك فرق واضح بينهما. فالبعل في اللسان العربي هو المعيل والمؤاكل والمشارب. فإذا جمع إلى كل ذلك النكاح والجنس صار زوجاً. والزوج يكون بعلاً أما البعل فقد لا يكون زوجاً. فالزوج في سن الشيخوخة بعد توقفه عن ممارسة الجنس يصبح بعلاً. ونرى دقة التنزيل الحكيم حين يتحدث عن الفروج فهو يذكر الأزواج "والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم.." المؤمنون 5و6. أما حين يتحدث عن الزينة فيذكر البعول "ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن.." النور 31.

هنا يتضح أمامنا بكل جلاء أن آية النساء 128 هي آية قوامة الرجل، وأن ذكر البعل فيها يدفعنا إلى ترجيح أن التنزيل يتحدث عن حالة أسرية اجتماعية إنسانية قد لا تكون لهاعلاقة بالجنس، تخاف الزوجة فيها من بعلها المنفق صاحب القوامة عليها من:

أ – النشوز، بأن يصبح متكبراً متعالياً، وديكتاتوراً يجمع السلطات كلها في يده، بشكل لا تستطيع معه امرأته أن تقوم بأي عمل، صغيراً كان أم كبيراً إلا بموافقة صريحة مسبقة.

ب – الإعراض، بأن يهمل شؤون بيته وأولاده، ولا يسأل عن شيء

ج - الإعراض بسبب التعددية الزوجية؟ هنا يأتي قوله تعالى في الآية التالية مباشرة: "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً}" النساء 129.

فإن وقع ما تخاف المرأة من بعلها نشوزاً أو إعراضاً، فليس أمامها إلا أحد أمرين:

1 – القبول بهذا الواقع. وهو ما تفعله معظم النساء في بلادنا، تحت تسميات ومبررات وعناوين مختلفة. لكن لها ألا تقبل بهذا الواقع انطلاقاً من قوله تعالى: {فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير} وهذا يقودنا إلى الأمر الثاني.

2 – رفض هذا الواقع. وهو ما يحصل حين تتعب المرأة من تسلط بعلها ونشوزه، أو من إهماله لها ولأسرته وإعراضه. وفي هذه الحالة تحدد لها الآية ما يجب عليها فعله، وهو إصلاح البين أي التقارب في وجهات النظر، بالحوار الهادئ السلمي، وفي هذا الإصلاح خير.

وتشير الآية بعد ذلك إلى عارض قد يقع خلال محاولة الإصلاح عبّر عنه تعالى بقوله: " وأحضرت الأنفس الشح" . والشح هو أن يستأثر الإنسان بكل الخير، وينسب كل الإيجابيات

لنفسه، وينفيها عن الآخرين. ونحن نرى بالفعل في محاولات إصلاح البين، أن كل طرف يضع المسؤولية على الطرف الآخر، ويبرئ نفسه من كل عيب وتقصير، ويلقي باللائمة على الآخر وينسب العيوب إليه، ويجرده من كل الإيجابيات، وهذا كله يجعل تحقيق الصلح عسيراً إن لم نقل مستحيلاً، ولابد من مفهوم الحل الوسط.

2. التعددية الزوجية

إن موضوع التعددية الزوجية يعتبر من أهم المواضيع ذات النقد والسؤال المباشر بين المسلمين المؤمنين، وبين بقية الثقافات. فما هي مشكلة التعددية الزوجية؟ وكيف طرحها التنزيل الحكيم؟ وكيف مورست خلال القرون التاريخية الماضية؟

الحقيقة التاريخية هي أن التعددية الزوجية كانت شائعة، وقد أكد التنزيل الحكيم أن عدد الزوجات المفتوح هو سنة تاريخية قديمة في قوله تعالى: "ما جعل الله للنبي من حرج فيما فرض له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدورا" (الأحزاب). وكانت التعددية الزوجية أمراً طبيعياً جداً ومقبولة اجتماعياً في عهد الصحابة، أما حين اكتفي بأربعة فيعتبر هذا تقدماً تاريخياً، ولا ننسى أن عدد ملك اليمين (الجواري) كان مفتوحاً بالإضافة إلى الزوجات.

جاء ذكر التعددية الزوجية في الآية الثالثة من سورة النساء، لكن المفسرين والفقهاء، أغفلوا السياق العام الذي وردت فيه، وأغفلوا ربط مسألة تعدد الزوجات بالأرامل ذوات الأيتام.

قد استهل تعالى سورة النساء بدعوة الناس إلى تقوى ربهم التي ختم بها سورة آل عمران السابقة، وبدعوتهم إلى صلة الأرحام، ثم ينتقل سبحانه إلى الحديث عن اليتامى، ليأمر الناس بإيتائهم أموالهم وعدم أكلها، فيقول: "وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا" (النساء 2.)

ثم يتابع الحديث عن اليتامى، آمراً الناس بنكاح ما طاب لهم من النساء مثنى وثلاث ورباع، في حالة واحدة حصراً هي الخوف من ألا يقسطوا في اليتامى. فيقول:"وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا" (النساء 3).

ثم يمضي سبحانه في الآية الرابعة إلى الحديث عن صَدُقات النساء ومهورهن، وفي الآية الخامسة إلى نهي الناس عن إيتاء السفهاء أموالهم، ليعود مرة أخرى إلى اليتامى، فيقول: "وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا " (النساء 6.)

ولابد للمتأمل المنصف الذي يريد أن يبحث مسألة التعددية الزوجية في التنزيل الحكيم من أن ينظر في هذه الآيات، وأن يقف مدققاً أمام العلاقة السببية التي أوضحها سبحانه بين موضوع تعدد الزوجات واليتامى ذكوراً وإناثاً، ضمن هذا الإطار من السياق.

اليتيم في اللسان العربي وفي التنزيل هو القاصر (ذكراً أو أنثى) دون سن البلوغ الذي فقد أباه، ومازالت أمه حية، فأما أن اليتيم هو القاصر، فقد ورد في قوله تعالى: {وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ} .

في حالة الخوف من عدم النجاح بالإقساط إلى اليتامى على الوجه المطلوب، جاءت الآية بالحل أي بالزواج من أمهاتهم الأرامل {فانكحوا ما طاب لكم من النساء}

إن الله تعالى يشترط لذلك شرطين: الأول أن تكون الزوجة الثانية والثالثة والرابعة أرملة ذات أولاد، والثاني أن يتحقق الخوف من عدم الإقساط إلى اليتامى، وطبيعي أن يلغى الأمر بالتعددية في حال عدم تحقق الشرطين.

ونقف خاشعين أمام قوله تعالى: {ما طاب لكم}. فإنه تعالى يشير إلى طيب النفس والخاطر عندها، تكريماً لها ولمشاعرها. لقد ذهب البعض إلى أن قوله تعالى: {فإن خفتم ألا تعدلوا} يعني عدم العدل بين الزوجات في العلاقات الزوجية، ولكن السياق يحكي عن التعددية بمفهومها الاجتماعي الإنساني وليس بمفهومها الجنسي، ويدور حول اليتامى والبر بهم والقسط فيهم، ولأنه تعالى انطلق في أمره بالاكتفاء بواحدة من حيثية واضحة تماماً هي قوله: {ذلك أدنى ألا تعولوا} أي أن الاكتفاء بالزوجة الأولى أقرب إلى أن يجنبكم الوقوع في عجز العول والإعالة.

وصف النساء في الجنة

اختلف المفسرون الأوائل في تفسير الآيات التي تصف وضع النساء في الجنة، وذهب الكثيرون إلى الإيحاء بأن النساء هناك للترفيه عن الذكور في الجنة. وزاد البعض في المغالاة بأن استعملوا مثل هذه الآيات لاستقطاب الشباب ودفعهم للقيام بعمليات تفجير أنفسهم موعودين بلقاء الحور العين وما إلى ذلك من أوصاف. وبالنظر في الزمن الذي دونت فيه التفسيرات، نلاحظ أنها كانت في عهد الدولة العباسية - التي انضوى تحت حكمها العديد من الشعوب الغير عربية- كانت في حروب مستمرة مع جيرانها من الدول الغير مسلمة. فربما بمثل هذه الإغراءات أرادوا ان يشجعوا الشباب للانخراط في صفوف المقاتلين. لذلك دعونا نستعرض الآيات المتعلقة بهذا الموضوع لنرى إن كان هناك أي دليل أو حتى إشارة إلى صحة مثل هذه التفاسير.

يجب أن نتذكر أنه سبحانه وتعالى عندما يقول: يا أيها الذين آمنوا، أو يخاطب المؤمنين، أو أصحاب اليمين، أو المتقين، أو مقيمي الصلاة وما شابه ذلك، فإنه يخاطب الذكور والإناث، لأنَّ هناك أيضا إناث من المؤمنين والصالحين والمتقين ومقيمي الصلاة. وكمثال لنستعرض إحدى السور التي ورد فيها وصف الجنة. ففي سورة الواقعة، يقول تعالى:

والسابقون السابقون (10) أُوْلَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ (14) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (15) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (16) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (18) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (19) وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ (23) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (24) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (25) إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا (26) وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ (27) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (28) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (29) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (30) وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ (31) وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (33) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (34) إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً (35) فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا (36) عُرُبًا أَتْرَابًا (37) لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ(38)

فالسابقون والمقربون هنا هم من الذكور والإناث، وما يتوفر في الجنة من حياة سعيدة مرفهة لهم جميعا .

وكما أعلمنا الله تعالى، أنه قبل يوم الحساب تأتي نفخة الصور، ومن ثم يتغير حال الكون باندثار السماوات والأرض والكواكب وكل شيء في الوجود، ويخلق الله كونا جديدا بشكل جديد (لا يعلم كنهه إلا الله)، وبعد الحساب يوم القيامة يتقرر من سيدخل الجنة ومن سيدخل النار التي صفاتها في علم الله . ولتقريب صفات الجنة إلى أذهاننا يصفها لنا بأشياء نفهمها. فكأننا في منتزه فيه الأشجار والأنهار والنوافير والخضرة وأجود أنواع الكراسي والطاولات والأثاث وأفخر أنواع الأطعمة والأشربة، ويقوم فريق من الشباب ذوي الطلعة البهية والخلق الحسن والشابات ذوات الحسن والجمال والأدب الرفيع، بتقديم أفضل أنواع الخدمة. وبذلك يحصل المرء على كل ما يشتهي فعنده الماء والخضراء والوجه الحسن.

فلا يوجد أي إشارات عن المتعة الجنسية كما ذهب الخيال ببعض المفسرين. لذلك يقول تعالى :

"سَابِقُوا إِلِي مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ " (الحديد 21)

وفي وصف آخر في سورة الدخان يقول تعالى:

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (53) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ(55)

فالمتقين هنا من الذكور والإناث، ولننظر إلى تحليل لمعاني كلمات تعبير "وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ" . وبتحليلها لغوياً نرجع إلى المعاجم اللغوية فنجد :

زَوَّجَ الأَشْياءَ : قَرَنَ بَعْضَها بِبَعْضٍ، الزَّوْجُ : كل واحد معه آخر من جنسه

زوّج الشّيء بالشّيء: قرنه به " {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) أي قرنا الذكور مع جنسهم من الذكور والإناث مع جنسهم من الإناث. وهناكَ أكثرُ مِنْ نَوعٍ مِنَ الزّوجيّة، والدّليلُ على ذلكَ قولهُ تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ} [يس:36[

إذن، معنى زَوَّجنا أي قَرَنا أي جعلنا من أعمارهم متقاربة بصحبة أقرانهم ،

هم : تعني أهل الجنة (من ذكر وأنثي)

الباء: ذكر ابن هشام النحوي أن حرف (الباء) في اللغة يفيد أربعة عشر معنى منها باء المصاحبة، والمثال القرآني الأبرز عليها قوله سبحانه: {يا نوح اهبط بسلام منا} (هود:48)، قال ابن عاشور: "الباء للمصاحبة، أي: اهبط مصحوباً بسلام منا. ونظير هذا قوله عز وجل: {ادخلوها بسلام آمنين} (الحجر:46)، أي: ادخلوا الجنة مصحوبين بالسلامة .

حور عين: لنأخذها كما قال المفسرون الأوائل بأنها ترمز إلى الحسن والجمال. ونعلم أن الكلمات والمصطلحات في القرآن دقيقة في معناها ومدلولاتها. لاحظ كيف أن الله عندما يتكلم عن الزواج بمعنى النكاح يميزه عن الزوج بمعنى الصحبة .

انظر إلى قوله تعالى:" فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا " (الأحزاب 37) ولم يقل زوجناك بها، وفي قوله تعالى: "قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ" (القصص 27)، لم يقل أنكِحُك بإحدى ابنتي. وفي السُّنَة عند عقد قران النكاح يقول ولي الأمر "زوجتك ابنتي) ولا يقول زوجتك بابنتي.

وعليه، فإن الفهم لآية "وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ" تعني قرنا أهل الجنة بصحبة الحور العين(كل مع جنسه متقاربين في العمر والأخلاق). ولا تعني لا من قريب ولا من بعيد زواج النكاح بين الذكور والإناث الحسناوات.

الشهوات من النساء

{14}زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ"

لقد اجمع معظم المفسرين على التفسير التالي:

[زين للناس حب الشهوات من النساء] أي حسن اليهم وحبب الى نفوسهم، الميل نحو الشهوات، وبدأ بالنساء لان الفتنة بهن اشد، والالتذاذ بهن اكثر، وفي الحديث " ما تركت بعدي فتنة هي اضر على الرجال من النساء " ثم ذكر ما يتولد منهن فقال: [والبنين] وانما ثنى بالبنين لانهم ثمرات القلوب وقرة الاعين كما قال القائل : وانما اولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض،

وقُدِّموا على الاموال، لان حب الانسان لولده اكثر من حبه لماله، [والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة] أي الاموال الكثيرة المكدسة من الذهب والفضة، [والخيل المسومة] أي الأصيلة الحسان، [والانعام] أي الابل والبقر والغنم، فمنها المركب والمطعم والزينة، [والحرث] أى الزرع والغراس لان فيه تحصيل اقواتهم

[ذلك متاع الحياة الدنيا] أي انما هذه الشهوات زهرة الحياة الدنيا، وزينتها الفانية الزائلة

[والله عنده حسن الماب] اي حسن المرجع والثواب .

وفي المقابل هناك تفسير آخر للمفكر المعاصر محمد شحرور ينطلق فيه من تعريف "النساء" فيقول ان كلمة النساء لها معنيين في اللغة فهي تأتي كجمع امرأة وتأتي كجمع نسيْ مشتقة من نسأ بمعنى الذي يأتي متأخرا. واستعملت في القران بهذين المعنيين. النساء: جاءت في اللسان العربي من "نسأ" والنسيء هو التأخير كقوله تعالى: {إنما النسيء زيادة في الكفر} (التوبة 37)،

أما "البنين" و "البنون" فتدل على الأبنية والصروح المشيدة ما لم يكن في النص قرينة تشير إلى الأبناء، كقوله تعالى {وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً} (النحل 72) فالبنين هنا تعني الأبناء،

أما في قوله مثلاً {ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا} (الإسراء 6) والكلام عن بني إسرائيل، وهم لم يكونوا قبل ذلك بلا أولاد ذكور، وإلا أصبحت "أكثر نفيرا" حشواً لا معنى له، وهل مَدَّهم بالذكور دون الإناث مثلاً؟ ف "بنين" هنا من البناء حتماً،

كذلك في قوله تعالى {أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ} (الشعراء 133) والكلام عن قوم عاد وقد عُرفوا بالبناء، ولو أن (بنين) هنا تعني الأولاد الذكور نفهم أنه سابقاً لم يمدهم بالذكور، وأنه بعدها أمدهم بالذكور دون الإناث وهذا غير منطقي، علماً أن الاستقرار والبناء أتيا بعد أن تم تدجين الأنعام لا قبلها، أي امتلاك البناء والعقار لاحق لاستئناس الحيوانات .

بالإضافة إلى ذلك نرى أن السياق في الآية يتكلم عن الشهوات بأنها متاع الحياة الدنيا. وكلمة متاع استعملت في القرآن للدلالة على أشياء وامتعة : "لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ" ﴿٢٩ النور﴾ "يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ" ﴿٣٩ غافر﴾

"قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ...." ﴿١٧ يوسف﴾

وعندما تستعمل للدلالة على المتعة تأتي مقرونة بما يدل على ذلك: "وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ

عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ" ﴿٣ هود﴾ "أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ" ﴿٦١ القصص﴾

وبناء على ما تقدم يكون تفسير الآية الأقرب إلى الصواب :

زين للناس حب الشهوات من النساء (الأشياء التي ستأتي لاحقا مثل الموبايل والسيارات وغيرها) والبنين(البنايات والأبراج والقصور وغيرها) والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة(من الحلي المصنعة والمزخرفة من سلاسل وعقود من الذهب والفضة) والخيل المسومة (المدربة للسباق والمزينة والأنعام والحرث . . الأنعام والحقول المخصبة . انما هذه الشهوات هي الأشياء في الحياة الدنيا، وزينتها الفانية الزائلة. والله عنده حسن المرجع والثواب.